

ياسين كتّاني ناقدًا حدثيًا بين مشروع الحدثية العربية والإبداع الأدبي

أمل نصير*

«الدكتور كتّاني أحد النقاد المعاصرين الذين درسوا الحدثية العربية من جوانب مختلفة نظريًا وتطبيقيًا.

وتأتي الدراسة الحالية؛ لتلقي الضوء على مقارباته النقدية حول تيار الحدثية وما بعدها في الحقلين العالمي والعربي، وحول شعريّة الحدثية في الرواية العربية».

موجز السيرة الذاتية

ولد الدكتور ياسين إبراهيم كتّاني عام 1955م في باقة الغربية؛ وقد درس الألقاب الثلاثة متخصصًا في الأدب العربي الحديث؛ في جامعة تل أبيب.

شغل الدكتور كتّاني، سابقًا، منصب مدير المدرسة الثانوية للعلوم والتكنولوجيا في باقة الغربية، كما وعمل مديرًا لقسم المعارف في البلدية؛ لمدة أربع سنوات إلى أن انخرط في عمله بأكاديمية القاسمي، محاضرًا للغة العربية. وقد استمر في التقدّم وإحراز الإنجازات وتقلّد العديد من المناصب خلال مشواره في الأكاديمية؛ ومن ذلك: رئاسة مجمع القاسمي للغة العربية، وتحرير مجلة "جامعة" التي تصدرها الأكاديمية؛ ورئاسة تحرير مجلة "المجمع"؛ إضافة إلى الوظائف الهامة في وزارة المعارف؛ مثل رئاسة طاقم الامتحانات الوزاريّة، وعضويّته في لجنة المناهج للأدب العربيّ والأدب العالميّ.

ولصدق عمله في خدمة الطلبة وأصالة إنجازاته المستمرة؛ عُيّن الدكتور كتّاني نائبًا لرئيس أكاديمية القاسمي، والعميد الأكاديمي للكلية عام 2013.

* باحثة ومحاضرة - جامعة اليرموك - إربد - الأردن.

كتب في مجال الحداثة والنقد الأدبي؛ وله أكثر من عشرين مقالاً وكتاباً في اللغة العربية واللغات الأجنبية، أبرزها كتابه الذي نُشر في الأردن بالتعاون مع مجمع القاسمي للغة العربية: "شعرية الحداثة في الرواية العربية".

شعرية الحداثة في الرواية العربية

صدر هذا الكتاب الموسوم بـ"شعرية الحداثة في الرواية العربية"؛ للدكتور ياسين كتّاني عن دار الرائد للنشر والتوزيع بعمّان- الأردن؛ برعاية مجمع القاسمي للغة العربية، وعدد صفحاته 199 من القطع المتوسط، ويقع الكتاب في استهلال، ومدخل، وستة فصول.

أصل الكتاب

يبدأ الكتاب باستهلال تحدّث فيه كتّاني عن موضوعاته، فيقول إنّها كانت في الأصل مقالات صدرت في المجلات العلمية، أو محاضرات ألقاها في مؤتمرات دولية أو محلية، وبرّر جمعها بين دفتي كتاب؛ لكونها تحمل قاسماً مشتركاً في المنهج، والمقاربة الأسلوبية، وليتسنى للباحثين، والدارسين الاطلاع عليها. إنّ هذا الاستهلال ينبئ القارئ بوجود رابط القراءة النقدية لنصوص روائية؛ فموضوع الكتاب يتمحور حول بؤرة الرواية (شعرية الحداثة في الرواية العربية).

فصول الكتاب

أمّا فصول الكتاب، فقد جعل كتّاني الفصل الأول منه، لرواية: (أعراس آمنة) تحت عنوان: الكتابة تعادل البقاء: التشكيل الفني في رواية إبراهيم نصر الله "أعراس آمنة"، وجاء الفصل الثاني ليحمل عنوان: انبهام الحدود ولعبة الإبهام والتجاوز في "تراهما زعفران"؛ ثمّ الفصل الثالث: التاريخ والفضاء التخيليّ في رواية "نداء ما كان بعيداً" لإبراهيم الكونيّ، والفصل الرابع: استجابة الشكل للمضمون في قصص زكريا

تامر، والفصل الخامس: الرواسي تصوير هباء: المفارقة والتضاد في صميم "مراي الوهم" لليلى الأطرش، والفصل السادس: التراسيندنتالي يتسلق على أكتاف الواقع: تعدد اللغات وتناوبها في رواية سحر خليفة.

تصوّر كئاني للحداثة العربيّة

أشار كئاني في مدخل كتابه إلى تصوّر للحداثة العربيّة عند المفكرين العرب، ومشروع الحداثة العربيّة، والحداثة في الإبداع الأدبيّ.

وفي هذا المدخل يجد القارئ نفسه أمام ناقد مبدع استطاع أن يقدّم لنا قراءة للمشروع الحدائيّ العربيّ، فناقش فيه التصرّو العربيّ للحداثة عند المفكرين العرب، ومدى صلاحية مشروع الحداثة العربيّ في النقد، والحداثة العربيّة في الإبداع، وقد استوفى الناقد في هذا المدخل الجوانب المتعلقة بهذا الموضوع، إذ إنّه رجع لعديد من الدراسات التي تحدّثت عنه، وهو يبدأ الحديث بنتيجة يبرّرها في السطور اللاحقة من المدخل يقول: "تبلورت في العالم العربيّ حداثة في مجال الفكر، والثقافة العامّة، ولكّنها لم تنجح في تحديث عميق للجذور في بنية الواقع الموضوعيّ، لقد وقفت هذه الحداثة عند نخبة علويّة عاجزة عن أن يكون لها تأثير فاعل في التحديث، وقد تكون أحداثها مجرد صدى لتأثيرات خارجيّة، محاكية مصدرًا منفصلاً عنها، فهي منفصلة في محاكاتها عن الواقع الذي تعيش فيه، غير عابئة بأحوال الناس وأسئلة التاريخ"⁽¹⁾. وهو في هذا الرأي يتقاطع مع محمود أمين العالم، وفيصل الدراج، وعبد الرزاق عيد، فهؤلاء النقاد تحدّثوا عن وجود قطيعة بين الفكر النهضويّ الحدائيّ، والواقع الاقتصاديّ والاجتماعيّ في المجتمعات العربيّة، التي وقعت تحت وطأة التقليد،

¹ ياسين كئاني: شعريّة الحداثة في الرواية العربيّة، الرائد للنشر والتوزيع، عمّان، 2013م، 2.

والمحاكاة للأخر الغربي⁽¹⁾، ويقف في جانب آخر مجموعة من النقاد التي تحدّثت عن وجود حادثة عربيّة بدأت في مطلع النهضة⁽²⁾.

مشروع الحداثة العربيّ والواقع الغربيّ

يرى كتّاني أنّ مشروع الحداثة العربيّ فشل في جميع جوانبه؛ لأنّها كانت حادثة عاجزة عن الوصول للواقع كما أنّها لم تستطع أن توجد له شخصيّة الخاصّة؛ لأنّها ظلّت ترتبط بواقعها الغربيّ الذي يختلف في بنيته وتركيبه عن الواقع العربيّ، وظروفه، كما أنه ألقى اللوم على السلطة في هذا. يقول: "من هنا، فإنّ السلطة العربيّة بطبيعتها المتسلّطة والفوقيّة، واحتكارها لوسائل الإعلام، والتعليم، والتثقيف عامّة، هي المسؤولة عن مستوى الفكر العربيّ، وتأزمه، وإشكاليّته"⁽³⁾، وهو بهذا يؤكّد على آراء من قال بفشل النهضة العلميّة، والنقديّة والثقافيّة في العالم العربيّ أمثال محمود أمين العالم، وعبد الله العروي، ومحمد عابد الجابري، وبرهان غليون، وفيصل دراج، وعبد الرزاق عيد⁽⁴⁾.

الحداثة في الإبداع العربيّ

في موضوع الحداثة في الإبداع العربيّ، يرى كتّاني أنّ الإبداع العربيّ أفاد من الإبداع الغربيّ، وحاول أن ينهض في معزل عن الفشل في الجوانب الأخرى، لكنّ النهضة بقيت غير مبرّرة لغياب السبب في استخدام هذا الأسلوب المستحدث من الآخر، يقول:

¹ انظر: محمود أمين العالم: أزمة الحداثة ما قبلها وما بعدها. وفيصل دراج: ما بعد الحداثة في عالم بلا حداثة. وعبد الرزاق عيد: الحداثة/ عقدة الأفاعي. ومحمد مصطفى بدوي: الفكر العربي بين الخصوصية والكونيّة. ومحمد برادة: اعتبارات نظريّة لتحديد مفهوم الحداثة.

² أحمد عيد المعطي حجازي: الحداثة لا ما بعدها.

³ ياسين كتّاني: شعريّة الحداثة في الرواية العربيّة: 5.

⁴ انظر: ياسين كتّاني: شعريّة الحداثة في الرواية العربيّة: 6، 7، 8.

"وإذا كان الروائيون العرب قد استفادوا في أعمالهم القصصية من منجزات القصة الغربية في المبنى والأسلوب، إلا أن مبررات استخدام هذا الأسلوب أو ذلك، تبقى متباينة نتيجة اختلاف المنطلق والحافز"⁽¹⁾.

وهو بهذا يتعارض مع ما رآه أدونيس من أن الحداثة الفنية لا ترتبط بالمجالات الأخرى، فهي تستطيع أن تتقدم، وتتطور، وترتقي ببنيتها الفنية والأسلوبية بعيداً عن التردّي الذي يستشري في مجالات العلم، والاقتصاد، والاجتماع، والسياسة، فليس هناك ترابط طردّي أو عكسي في هذا الموضوع⁽²⁾، فالنقاد رأوا أنّ الأدب قوة تتجاوز كل المثبطات، فهو ثورة تغيّر اللغة، والأشكال، وتستطيع أن تمارس فعل الهدم والبناء من خلال سلطتها غير المقتنة بواقع المجتمع أو ظروفه، والتاريخ يشهد على أن تردّي المجتمع العربي لم يكن كفيلاً بأن يحبط المسيرة الفنية في مقدرتها على الإبداع، وتجاوز حدود المعقول، وتحطيم الجدار الأسلوبي، والوصول إلى بنية جديدة ومستحدثة، ففي العصر العباسي وجدنا أنّ التطور شمل نواحي الأدب، ولم يتأثر بالمثبطات السياسية وغيرها، فالقضية نسبية لا قاعدة لها؛ لأنّ الأدب في زمن التخلف، والقلق الاجتماعي والسياسي والثقافي يستطيع أن يوجد طريقه الخاص للتعبير عن هذا القلق بالتعارض، والتضاد، والمفارقة، وتعدّد الدلالات⁽³⁾.

فالناقد كئاني ربّما كان يحاول أن يجد تبريراً لذلك التراجع الذي لمسّه في تلك النصوص التي ناقشها في كتابه، فهو يردّ الأزمة الفنية إلى ذلك الفهم القاصر للآخر، الذي جعل المبدع يقع في قطيعة زمنية واجتماعية وثقافية وسياسية عن عالمه الذي

¹ ياسين كئاني: شعريّة الحداثة في الرواية العربية: 12.

² انظر: أدونيس، علي أحمد سعيد: فاتحة لنهايات القرن، دار العودة: بيروت، 1980م، 320-322.

³ انظر: كمال أبو ديب: الحداثة، السلطة، النص، مجلة فصول، المجلد 3، 4، إبريل، مايو،

1984م، 35-43.

يعيش فيه، فأوجد نصوصًا إبداعية، لكنّها تفتقد لمقومات الدافع الإبداعيّ الذي كان لا بدّ أن يرتبط بالواقع العربيّ أو أن يكون منطلقًا له، ووجد أنّ المبدع كان يعيش في بوتقة إبداع الأخر، ويحاول أن يقلّده عابثًا بسلطة الواقع التي لا تشبه واقعه، ففقد خصوصيته وسط هذه العوالم، والأنماط الأدبية.

نماذج من دراساته للحدّثة في الرواية العربيّة

لقد عرض كتّاني لستّ روايات سرديةً حدّثيةً لأدباء من الوطن العربيّ جعل لكلّ رواية فصلًا، فجعل الأوّل لقراءة التشكيل الفنيّ في رواية إبراهيم نصرالله (أعراس آمنة)، ورأى أن الرواية تقوم على المفارقة بدءًا من عنوانها: إذ لم تكن أعراس آمنة يكتنفها الأمان حقيقة كما يُتوقّع للأعراس، ولم تكن مكتملة مثل بقية الأعراس، فأعراس الرواية تعكس حال الشعب الفلسطينيّ المقلوب الذي حُرّم من الأمان، والحياة الطبيعيّة بسبب الاحتلال والتشرّد، فانتهدت هذه الأعراس بالموت، إذ كان كلّ عرس ينتهي بمشروع شهادة، وقد كان تفعيل المفارقة في الرواية جزءًا من بناء النصّ، وصياغة الدلالة فيه، فجاءت الرواية كما رآها الناقد كتّاني ملهاة فلسطينية، لكنّها ملهاة مشبعة بالدم! ولعلّ هذا هو حال الشعب الذي قدّم قوافل الشهداء منذ الاحتلال الغاشم لأرضه، وما هذه المفارقات إلّا ذاتها المفارقات التي عاشها، وما زال يعيشها الفلسطينيّ حيث تحوّل الموت إلى شيء عادي، وتحوّل العرس بمفهومه المتعارف عليه إلى النقيض تمامًا من غياب الفرح، وتحقّق اللقاء إلى ولادة حياة جديدة، فكلّ مستحقّات العرس أصبحت بعيدة المنال، وغير عادية!

من هنا انتظمت الرواية ثنائيةً ضديةً من أولها إلى آخرها هي ثنائية الموت والحياة: فالموت طال كثيرًا من الناس، وكثيرًا من الأمكنة في أزمنة عديدة، ومنهم كلّ من له علاقة بأمنة، لكن في المقابل سيطرت غريزة الحياة من خلال أفواج الأطفال الذين يولدون، وكأنتهم جاؤوا تعويضًا عن من فقد من الشهداء، من هنا كان للموت طعم

آخر، غير ما نشاهده من مظاهر الموت العادي، هو الإصرار على الحياة بكلّ الوسائل والسبل، وليس فقط التعويض عن استشهادون، لكن القبض على كلّ مَعْلَم من معالم الحياة من خلال عمليّة الكتابة؛ لأنّها باتت تأخذ دورًا فاعلاً ومهمناً معادلاً للحياة، ومناقضاً للموت كما يراها كَتّاني، فهي تُخلّد الشهداء، وتبعث فيهم الحياة جيلاً بعد جيل، وهي تمحو آثار الموت عن الأماكن، وترسمها من جديد، وتبقيها حية، خالدة في أذهان أبنائها الذين يولدون في المستقبل؛ فهي جزء من المعركة ضدّ المحتلّ الغاشم، وضد الموت والفاء، وبها يُستردّ ما ضاع.

أمّا توزيع المادة الحكائيّة للرواية، فيراها كَتّاني تسهم في تشكيل دلالتها، ويرى أن الرواية نصّ استرجاعيّ، فعمليّة القراءة لهذه الرواية ليست أحاديّة الاتجاه، بل تعتمد على تشتيت عناصر الرواية ممّا يحتاج من القارئ إلى تكثيف يقظته وذكائه، والتوغّل في القراءة حتّى النهاية، وهو بحاجة إلى استرجاع ما قرأه مرّة بعد أخرى حتّى يستطيع ربط الأحداث وفهمها، ومتابعة السياق الزمني.

ويستخدم نصر الله تقنية الحوار المقطوع من طرف واحد حينما يقدم شهداءه، ولعلّ هذا يعكس حالة الشعب الذي تحوّل إلى شتات، كأشلاء آمنة، ولكن الكاتب لا يريد هذا لروايته؛ لأنّه يعني الموت المحقّق لشعبه، وقضيّته، فأراد للحياة أن تدبّ في أوصاله من خلال الكتابة، التي تُخلّد الأشياء الجميلة، وتُخلّصها من الموت، فهي حالة استنقاذ عبر التوثيق والتدوين، وهي التي تجمع أشلاء الشهداء، فتعيدهم أحياء، وتخلّدهم، وهي اليقين الوحيد وسط كلّ هذه العتمة الحالكة التي هدمت الأشياء الجميلة، وزلزلت حاضر هذا الشعب الصامد ومستقبله.

لقد ناقش كَتّاني رواية "أعراس آمنة" فنيّاً، وتحدّث عن جوانب هامّة في هذه الرواية، التي كانت تُحتّم على القارئ أن يبذل جهداً في ترتيبها وتحديد عناصرها وبؤرتها، ثم حاول أن يضيء عنوان النصّ، وقد عرض لموضوع هامّ أنارتته الرواية،

وهو أنّ الكتابة ثورة على الموت والانحناء؛ يقول المؤلف على لسان إحدى الشخصيات، وهي رندة: "هل تعرف ما مصير الحكايات التي لا نكتبها؟ إنّها تصبح ملكاً لأعدائنا"⁽¹⁾ وهو خطاب وجهته إلى غسان كنفاني.

أما طبيعة اللغة الروائية؛ فقد وظّف إبراهيم نصر الله اللغة العامية والفصيحة مزاجاً بالدلالات بين مستويات المجتمع الداخلية والخارجية، فهي تحمل رؤى الإنسان في العالم، إذ ليست القضية رندة أو أمانة في الرواية، بل هي قضية المرأة التي حرّمها الرجل المقهور من الآخر حقوقها، فكان الموت هو غياب القوة المسلوبة من آخر تحكّم بوجودنا ليصبح الوجود قلماً كقلق اللغة، والدلالة في الرواية.

وفي الفصل الثاني درس كتّاني رواية إدوارد الخراط (تراها زعفران)، وركّز على قضية الإيهام، وتجاوز المؤلف في هذه الرواية التي أثارت إشكالية عند النقاد في انتماها لجنس الرواية أو السيرة الذاتية؛ لأنّها كانت تعرض لحقائق امتزجت بمخيلة المؤلف الذي أباح لنفسه أن يتدخّل في صياغتها، وقد حاول كتّاني صوغ حقيقة أنّها سيرة ذاتية، وبرّر هذه الحقيقة، وبحث عن الصوت الحقيقي لإدوارد الذي تدخّل فيها بعدة أصوات.

إنّ كتّاني ومنذ رسم عنوان دراسته: (انهايم الحدود ولعبة الإيهام والتجاوز) يشير إلى الاختلاف حول هذا العمل الفني، ويعمد إلى البحث في إشكالية التصنيف بمقاربة النقاد النقدية لهذا العمل، فيذكرها ويناقشها، ويخلص إلى أنّها تجمع بين السيرة الذاتية والرواية، فهي غير مطابقة لحدود السيرة مثلما رسمها لوجون (Lejeune) لا سيّما أنّ كتابة السيرة في الأدب العربي كانت في عهده حديثة نسبياً، ولم تعتمد شكلاً نهائياً لها، وما جاء في نصّ الخراط جمع بين السيرة الذاتية والأسلوب الحكائي؛ إذ

¹ إبراهيم نصر الله: أعراس أمانة وتحت شمس الضحى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر:

أعطى الوقائع الشخصية والتاريخية شكلاً تخيلياً وفنياً؛ فكانت فيها أبعاد جمالية وفلسفية بهدف قهر الزمنية، والانتصار على الموت. وقد جمع بين الواقعي والأسطوري والحلمي، وجمع كذلك بين لغة النثر، ولغة الشعر مستخدماً اللغة المحكية إضافة إلى الكلاسيكية.

لقد أسس الخراط، كما يرى كَتّاني، كتابة جديدة تثور على المتشكّل والناجز، وأثر أن يتخفى خلف راويته ميخائيل؛ لكي يكسر التطابق بين عمله والسيرة الذاتية. ويرى كَتّاني أنّ (تراهما زعفران) تقوم على عدد من الثنائيات الضدية أهمها الهدم والبناء، إذ هدم الخراط نظام السيرة الذاتية باختراقه الحدود التقليدية المتعارف عليها، وأقام مكانها كتابة جديدة تجمع بين الرواية، والحكاية الشعبية والشعر، إضافة إلى السيرة الذاتية.

وقد قام، كذلك، بهدم صوت الراوي المطلق المسيطر على السرد، فراوح بين أنا الناظم وأنا المسرود؛ ممّا حقّق له مراده بإنجاز كتابة غير نوعيّة، مثلما سمّاها الخراط نفسه.

لم يسلم الزمن من هدم الخراط أيضاً، فقد استبدل زمن الذكريات الموجه بزمن آخر يتعالى على الألم، والفقر، والفقْد، ليشيّد مكانه زماً آخر يحلم به، ويتطلّع إلى العيش في ظلّه.

وقد ساهم الانفتاح على الحلم، والأسطورة، والحكاية الشعبية، واللجوء إلى التناس مع حكايات ألف ليلة وليلة في تحقيق مراد الخراط لتخطّي المفهوم التقليدي للكتابة محققاً سمة القصّ ما بعد الحدائث التي تمثّلها الخراط حسب قراءة كَتّاني لعمله الفنيّ.

إجمال

أستطيع القول إنَّ كتّاني في كتابه الموسوم بـ "شعريّة الحداثة في الرواية العربيّة" قد غاص في أعماق الذات المبدعة، وعُني بالخارج النصّي، وما يُحسب له في هذا المجال هو استطاعته الوصول بالنصوص التي درسها إلى نتائج نصيّة تتعلّق بحقائقها الخارجيّة، وهي تتعالق كثيرًا مع بنيتها الداخليّة ومضامينها. إنَّ لغة الكتاب، ووضوح مراميه، ومبرّراته للدراسة نستطيع معها أن نؤمن بوجود الموضوعيّة والذاتيّة لهذا الناقد الذي استطاع أن يقدّم إشارات تحتسب له على صعيد الدراسات التطبيقية للرواية العربيّة؛ فهو قد تناول نصوصًا لها حضورها في واقعنا العربيّ، وهي نصوص حداثيّة بمضامينها وبنيتها؛ فكان كتّاني قادرًا على استيعاب موضوع الحداثة، ودراسة موضوعات غنيّة ومتنوّعة حوله.

قائمة المراجع

- أبو ديب، كمال. "الحدائة، السلطة، النص" مجلة فصول، مج4، ع3، 1984م.
- أدونيس، علي أحمد سعيد. فاتحة لنهايات القرن، بيروت: دار العودة، 1980م.
- بدوي، محمد مصطفى. "مشكلة الحدائة والتغير الحضاري" فصول، مج4، ع3، 1984م.
- برادة، محمد. "اعتبارات نظرية لتحديد مفهوم الحدائة" فصول، مج4، ع3، 1984م.
- حجازي، أحمد عبد المعطي. "الحدائة لا ما بعدها" إبداع، القاهرة، نوفمبر 1992م.
- درّاج، فيصل. "ما بعد الحدائة في عالم بلا حدائة" الكرمل، رام الله، عدد 5، 1997م.
- العالم، محمود أمين. "أزمة الحدائة ما قبلها وما بعدها" إبداع، القاهرة، نوفمبر 1992م.
- عيد، عبد الرزاق. "الحدائة/ عقدة الأفاعي" قضايا وشهادات 2، صيف 1990م.
- كئاني، ياسين، شعريّة الحدائة في الرواية العربيّة، عمّان: الرائد للنشر والتوزيع، 2013م.
- نصر الله، إبراهيم. أعراس آمنة وتحت شمس الضحى، ط1، بيروت: المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، 2004م.

